وضعية النقد الأدبي في المغرب، مرحلة السبعينيات نموذجا

د. عبد السلام فزازي
شعبة اللغة العربية وآدابها .
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة أكادير المغرب

1- تطور النقد الأدبي:

إن النقد باعتباره جزءا من الظاهرة الأدبية، أو من الظاهرة الاجتماعية العامة بمفهوم أشمل، لا مناص له من مواكبة التحول الذي طرأ على البنيات الاجتماعية، ومن التعبير عن التغيرات والصراعات التي عرفتها حركة الواقع المتجددة والتي انتهت بإفراز حصيلة إبداعية متباينة، شملت مختلف الأجناس الأدبية، من شعر، ورواية، وقصة، ومسرح...، فكان ذلك إرهاصا لظهور حركة نقدية سوف تقوى على مسايرة التجارب الجديدة وسبر مضامينها.

فهل هذا يعني أن الحركة النقدية الأدبية انطلقت انطلاقة عصامية، لم ترث مجدا ترتكز عليه، أم أن الإرث كان موجودا، فاستغنت عنه، وأحدثت معه ما يمكن تسميته "قطيعة"؟.

الحقيقة أن النقد وجد من قبل ـــ ولا يهمنا تحديد فترة ظهورهـــ، غير أنه كان يسير في اتجاه مخالف لما هو عليه الآن. وبعبارة أدق، كان لا يزال في مرحلة التقليد، ومرد ذلك إلى طبيعة الأعمال الأدبية من جهة ، وارتكازه على الجانب الفني من جهة أخرى. وكيف ما كان الحال، فإن الممارسات الأدبية التي ظهرت منذ الثلاثينات، تعتبر محاولات نقدية، مهدت الطريق لحركة طلائعية ظهرت بالخصوص منذ متم الستينات، وتعتبر بحق، تحولا في تاريخ النظرية النقدية عندنا. وبعبارة أخرى، يمكن القول بأن التطور الذي حدث في النقد الأدبي منذ تلك الفترة، يرجع في أساسه إلى تطور البنيات الاجتماعية والفكرية والسياسية، علاوة على تأثره بالتيارات الخارجية.

فهل هذا التطور يقصد به قدرة النقد المغربي على تخطي حدود النقد القديم الذي ظل مهتما بالأساليب الجزلة، والألفاظ الرصينة، والتمييز بين الأشعار من حيث الجودة والرداءة، أم أنه تطور في المضمون؟

الواقع أن الشق الأول من السؤال، لا يمكن أن يخرج عن مصطلح "التطور" لأن الشكل له دوره في التبليغ والتأثير، وبالتالي فإن المضمون، كما يقول الدكتور محمد السرغيني، نصل إليه من خلال الشكل.[1]

أما الشق الثاني من السؤال، فهو أول ما يتبادر إلى الذهن، خصوصا وأن النقد الأدبي المعاصر ينظر إلى الإنتاج الأدبي من زاوية رئيسة، هي مدى قدرته على التعبير عن الواقع، وانعكاسه عليه بصراعاته وتناقضاته؛ ومن ثم يحكم عليه بالتطور أو التحجر. وهناك مقياس آخر لابد من الإشارة إليه والمتمثل في الأدوات المستعملة للكشف والتعرية، ثم المفاهيم والرؤى التي ينطلق منها.

وعلى أي، لسنا بحاجة إلى شرح مصطلح "التطور" ما دام همنا هو البحث في تطور الحركة النقدية نفسها، والتي تعتبر جوهر هذا العنصر.

أود أن أشير أولا إلى أن بداية التطور كانت منذ مستهل السبعينات حسب تحديد النقاد، وقد سماها نجيب العوفي "التأسيس والتأصيل"، ورأى أنها واهية الصلة بالمرحلتين السابقتين التقليدية والتجديدية "بسبب" الانقطاع وضعف التفاعل وانتفاء التطور التاريخي الذاتي.[2]

وإن صح القول بضعف الصلة بين المراحل النقدية الأدبية، فإن ذلك يرجع إلى أسباب عدة، منها أن الوضعية النقدية الجديدة تقودها أقلام شابة، تفتحت على مناهج غربية مستحدثة، تطمح إلى جعل الشيء الأساسي من النقد هو «مدى مساهمته، ومدى قدرته على بلورة الوعي، وعلى إضافة الجديد إلى حياتنا الفكرية وإلى حياتنا الأدبية».[3]

فهذه الطموحات الجديدة تسعى إلى اتخاذ النقد وسيلة لأبراز النص الأدبي على حقيقته، وإلى إعطاء الاعتبار للشكل في آن واحد. بمعنى هل هذا المضمون يعبر عن الواقع ويلتحم به من أجل التفاعل بطريقة جدلية، أم أنه يتناول موضوعات معزولة عما يعيشه المجتمع؛ وبالتالي ما هي الوسيلة التي يعتمد عليها صاحب النص لمعانقة هذا الواقع، أهي فضفاضة تعتمد الأساليب المشوقة، أم هي لغة معبرة تهدف بدورها إلى التفجير؟.

إن نظرة النقد الأدبي المعاصر، أصبحت ترتكز على الواقع المعيش أكثر من المنظور النقدي السابق. وثمة سببا آخر، يتمثل في اختلاف طبيعة المرحلة السبعينية عن الفترات السابقة، من حيث مستوى الوعي الاجتماعي.

فاحتدام الصراعات السياسية والفكرية التي عرفتها المرحلة، لم يكن من شأنها أن تظهر من قبل، سيما في الخمسينات، حيث كان الشعب المغربي جردها من مطلبه السياسي (الاستقلال)، أي من صداع كان من شأنه أن يظهر وقت ذاك.

إذن فهذه الأسباب وغيرها، ليس من شك في أنها عملت على خلق انقطاع بين المراحل النقدية، وربما هو الأمر الذي جعل العديد من النقاد ينعتونها بالتشتت والضعف والتهميش في بدايتها. وقد تضاربت آراء كثيرة في الموضوع. فهذا نجيب العوفي يقول: «ومما يزيد الطين بلة، أن حقلنا النقدي منذ بداية نفحته إلى نهاية العقد السبعيني والجهود فيه غير منتظمة، وخاضعة للمزاج وهوى الخاطر، أي أن النقد لم يكن عبر تاريخنا الأدبي تقليدا ثابتا ومرعيا، ولم يدخل مؤسساتنا التعليمية ليترعرع ويتفتح...كما ظل مهمشا في طيات الجرائد والمجلات».(4)

وصحيح أن الممارسات النقدية، في بدايتها، كانت على تلك الوضعية، لأنها بداية تجريبية. فلابد لها من التعثر والتشتت، خصوصا وأنها تلقت معارضة شديدة، أدت إلى انفجار صراع عنيف. لكن مع مرور الزمن وتطور التجربة، ستتمكن من الوقوف على قدميها واستبطان الانتاجات الأدبية. وفيما يخص تهميش النقد في الصحف والمجلات، فهي حقيقة لها ما يبررها في الواقع التاريخي والأدبي، فصعوبة النشر ـــكما صرح العديد من المثقفينـــ حتمت ذلك، كما أن الانتماءات السياسية، دفعت بالنقاد إلى نشر كتاباتهم في الجرائد التي يفضلون الكتابة فيها. فكان طبيعيا وبدافع القناعات الفطرية والسياسية أن يهمش النقد في الصحف. لكنه في الحقيقة ليس تهميشه وإنما هو في حاجة إلى التوثيق. أما مسألة التشتت، فإنها حالة ترجع لعدة أسباب، أهمها، تشتت النقاد أنفسهم بين المناهج الغربية المستجدة، أثناء محاولتهم نقلها إلى التربة المغربية، وهذا ما فرض على النقد الأدبي عندنا أن يعيش «مرحلة التشتت والتجزئة، وإن حاول بعض رواده إظهار ألوان من سراب المهارات، تحمل القارئ على الاعتقاد بأنهم يمتلكون ثقافة واسعة تخول لهم فرض نظرية أو مناهج متميزة، في حين أنهم لا يعرفون سوى قشور الأمور، ولا يرددون سوى بقايا المذاهب النقدية الأوربية التي لا زالت تختلط لديهم».(5)

وإذا عدنا لنبحث في رأي نجيب العوفي حول عجز النقد عن الدخول إلى المؤسسات التعليمية، فتلك حالة عاشها النقد الأدبي، ولا زال يعرفها نسبيا إلى حد الآن، فبإلقاء نظرة على مقررات السلك الأول من شعبة الأدب العربي لا نجد إلا نصوصا نقدية قديمة (جاهلية، إسلامية، أموية، عباسية) تتناول دراسة آراء ابن سلام وابن قتيبة والجاحظ وقدامة...، وهي نصوص لا تمت بصلة إلى واقعنا المعيش، وإلى ما يطلع عليه الطالب في المجلات والصحف، اللهم إذا استثنينا دراسة آراء بعض أقطاب الأدب العربي الحديث لبعض الأساتذة الذين يرنون إلى الحداثة العربية/ العربية، أو العربية/ الغربية... لكن هذا لا يعني حرمان النقد أو عجزه عن ولوج أبواب المدرجات. فهناك أساتذة جامعيون استطاعوا بفضل تفتحهم على التيارات الخارجية، واعتمادهم على أصناف المعرفة في

دراستهم أن يفرضوا وجوده بطريقة أو بأخرى، ومن ذلك أقدم العديد من الطلبة على إنجاز بحوث في الأدب المغربي الحديث والمعاصر من شعر ونقد وقصة قصيرة ومسرح.

وبصفة عامة، رغم ما سجل على النقد الأدبي في بداية السبعينات من ضعف وتشتت، فإنه لم يمنع تطوره، ومواكبته للإنتاجيات الأدبية، وإنما هو ضعف وتشتت يؤكده التحول الذي طرأ على المجتمع، قبل أن يحدث في الممارسات النقدية. وإن الصعوبات والعراقيل التي واجهتها الحركة الأدبية الجديدة، هي في الأصل مثبطات عاشها المجتمع المغربي بما يرتطم فيه من صراعات وتناقضات، فكان طبيعيا أن يلتحم بها النقد ويعكسها بصدق وأمانة.

إنها حقيقة تاريخية واجتماعية أدت إلى إفراز حصيلة ثقافية زاخرة، متفاوتة في الكم والكيف، والتعميق والتسطيح، متباينة في الاختيارات والقناعات، وجدت فيها الممارسة النقدية المرتع الخصب للترعرع والتطور، تطور في الشكل والمحتوى. لكن السؤال المطروح، هل استطاع النقد في تطوره أن يستفيد من الصراعات الأدبية والاجتماعية، أم أنه انتكس من جديد في ما اصطلح على تسمية «أزمة أو مأزق»؟

2 - الصراع النقدي:

لقد بينت سابقا كيف أن الثقافة انشطرت شطرين أو اتجاهين متعارضين، يعبران أساسا عن قناعات فكرية ونزعات سياسية متباينة، وأن الأدب باعتباره جزءا من الثقافة الوطنية، تأثر بنفس المناخ، وعاش ذات الظروف واستبطن حركة الواقع، وما يرتطم فيها من تناقضات، انتهت بتفجير الصراع بين الاتجاهات المتعارضة، تعالت صرخاته رافضة، مرة تتناول النص وأخرى تتطاول على النفس، وفي كلتا الحالتين، هو صراع معبر عن الواقع المعيش، منبعثة منه ومنعكس عليه.

وقد كان بإمكان المثقفين أن يتنازعوا فكريا دون مساس الجانب السياسي، لكن الخلاف الفكري أصبح مقنعا بالأسلوب السياسي، سيما وأن طبقة الكتاب والمبدعين، يؤمنون باستحالة فصل الممارسات الإبداعية عن الواقع الاجتماعي والتاريخي.

فكان طبيعيا أن تدخل الحركة الأدبية حلبة الصراع، الذي هو في الأصل صراع طبقي، قبل أن يكون صراعا ثقافيا، إذ لا يمكن أن ينزل من السماء وإنما له ما يبرر وجوده في الساحة الوطنية، يعني أنه لا وجود للصراع بدون وجود الطبقات. فالقضية أولا وأخيرا قضية صراع.

وقد يتوهم مما تقدم، أن الجانب السياسي يعتبر اللبنة الأولى والأساسية لتكون الصراع. والحقيقة لا، لأن النزاعات السياسية لا تقوى وحدها على إبرازه، فهي ليست

سوى جزء من ذلك، لها دورها الفعال في الإذكاء، وإنما ذلك للإبداع الذي يعمل على الكشف والتعرية، ويمتلك القدرة على الدخول في الصراعات الاجتماعية.

وعلى كل، فإن ما يهمنا من هذا، هو الصراع النقدي الأدبي الذي عرفته الساحة الثقافية المغربية في النصف الأخير من العقد السبعيني والذي أسال المداد مدرارا، واستبد بصفحات الملاحق الثقافية للجرائد الوطنية. فما هي عوامل تفجيره؟ وإلى أي حد استطاع أن يسير في إطار منهجي بناء؟ وماذا استفاد النقد الأدبي من هذه الصراعات؟

نشير في البداية إلى أن القول بظهور الصراعات في السبعينات تحديد غير مناسب، على أساس، أنه لم يكن وليد العقد وإنما ترجع جذوره إلى أبعد من ذلك. غير أن الصراع الذي كان أكثر بروزا، هو المطالبة بالاستقلال لكن مع تفتح النقد الأدبي على التيارات الخارجية ومحاولة نقلها اتضح جليا أن الصراع إنما كان مؤجلا.

والمهم، ما دمنا نتفق على أن الحركة الأدبية لم تعد قاصرة على الفن، بمعنى أنها لم تحصر هدفها الأسمى في الجانب الجمالي كما كانت سابقا إلى حد ما، أصبحت تتجاوز هذا المنظور لتطرح قضايا ومشاكل المجتمع، فإن الحركة النقدية واكبت هذا التحول الذي شهده التيار الأدبي والتصقت بحركة الواقع المتجددة رغم ما واجهها من «عراقيل وصعوبات، بعضها ذو طبيعة موضوعية، يعترف بها النقد نفسه ويحاول تدليلها، وبعضها الآخر مفتعل ومدسوس».(6)

وكان لزاما على النقد الطلائعي أن يواجه تلك العراقيل ليعري آليات التناقضات ويكشف عنها، وهذه الصعوبات والعراقيل التي يشير إليها الوادنوني، ربما ستكون المحرك الأساسي لتفجير صراعات سياسية وثقافية حادة، ظهرت بوجه الخصوص في النصف الأخير من المرحلة السبعينية (الانتخابات البرلمانية 77) (ودراسة حسن الطريبق للشعر المغربي من خلال أربعة شعراء).

فالصعوبات الموضوعية ترجع، في غالب الظن، إلى التحول الذي حدث في البنيات الاجتماعية والحركة الأدبية باعتبارها جزءا منها، حيث أعلن النقد ثورة علنية ضد المنهج السائد الذي ظل يتحكم في الممارسات النقدية فترة طويلة، بتبنيه المناهج الغربية المستجدة (المنهج البنيوي- الشكلاني- البنيوية التكوينية...). وهذا يدل على مناهضة التيار الجديد لسابقه، مما سيجعل النقد يعيش مرحلة صراع عميق بين اتجاهين (الاتجاه السابق والاتجاه الجديد)، يشكلان صورة صراع عميق لواقع عام، تسير وفقه الثقافة المغربية كلها.

أما العراقيل الذاتية فلا شك أنها وليدة الاتجاهين، خصوصا وأن المفاهيم والاختيارات النقدية غدت انعكاسا للقناعات السياسية والأيديولوجية، ومما زاد في الطين بلة، صعوبة الطبع التي فرضت نشر الممارسات النقدية في الصحف الوطنية، وبذلك

اتخذت مفاهيم سياسية اكثر منها أدبية بدليل أن كل تيار أصبح يهدف إلى تهجين الآخر والحط منه بطريقة أو بأخرى، فكانت النتيجة أن اختلطت الممارسات النقدية بالصراعات السياسية، فأصبحت تتحكم فيها النّزاعات الذاتية، والانتماءات السياسية، مما جعل النقد يخضع لتذوق شخصي، ولإسهامات فردية تسيء لوظيفة النقد، وتجعل منه مجرد تطبيق فوضوي. ومن ذلك يمكن الإشارة إلى بعض الآراء التي دارت حول رواية «دفنا الماضي» لـــعبد الكريم غلاب.

فالبشير الوادنوني، يرى أن الرواية جزء من تفكير غلاب القائم على المرتكزات الغيبية والمثالية، وإنكاره فكرة الصراع، ينضاف إلى هذا أن تفكير غلاب نفسه، جزء من الأيديولوجية المسيطرة باعتباره بورجوازيا، فقد كتب الرواية لخدمة هذه الطبقة، يقول: «لقد كتب غلاب روايته اعتمادا على تجربته الشخصية، وعلى أيديولوجيته الطبقية، وهما عنصران أثبتا قصورهما في مجال الإبداع الفني، عند كثير من الكتاب البورجوازيين الذين لا يتوفرون على موهبة أصلية ومراس طويل. ثم إن غلاب حبس نفسه في إطار التاريخ الماضي، و لم يستطع التخلص من قبضته. وهذه ظاهرة تستحق الدراسة والتحليل».[7]

والملاحظة نفسها أدلى بها إدريس الناقوري حين ذهب إلى القول بأن «مضمون الرواية يؤكد فعلا أنها كتبت لتحقيق عدة أهداف».[8] في حين أن غلاب نفى كل هذا، وأنكر على من استعملوا كلمة بورجوازية ما داموا لم يستوعبوا معناها الأيديولوجي، وقال: «الرواية (دفنا الماضي) لم تستهدف تصوير طبقة معينة، وإنما صورت الإنسان المغربي الذي تحرك على مسرح الأحداث في الفترة التي كتبت عنه الرواية. وهذا الإنسان كما هو سواء شعر القارئ أو الناقد، بأنه بورجوازي أو غير بورجوازي. والصدق في الأداء الأدبي يدفع بالكاتب ألا يزيف الإنسان الذي يتحدث عنه».[9]

وهكذا كان من المتوقع أن يتقنع النقد الأدبي بالأسلوب السياسي، وتختلط الأحكام النقدية بالقناعات السياسية ومصطلحاتها (أيديولوجية- بورجوازية- طبقة كادحة- استغلال...)، لأنه (النقد) مرحلة تابعة للنصوص الأدبية التي التحمت بالواقع، وعملت على تعريته ومحاورته، لم يجد بدا من الدخول في معترك الحياة اليومية.

أما إدريس الناقوري، فلم يقف عند القول بانحراف المسار النقدي في صراعاته، بل كشف عن نقطة الخطورة التي ينطوي عليها، ونبه إلى أن بعض النقاد يتعمدون استعمال مصطلحات ومفاهيم نقدية متعارضة مع انتماءاتهم، قصد التضليل، ومحاولة الظهور بغير الوجه الحقيقي. وفي نفس الوقت، رأى أن حسم هذه الخطورة أمر موكول للقراء الذين يستطيعون فضح ذلك من خلال مقارنة بين قناعات الكاتب السياسية والفكرية وبينما ينشره».[10]

وإذا ما اتفقنا مع الناقوري على ما ذهب إليه، وتذكرنا الأمانة المطلوبة في العمل النقدي، فإننا نخلص إلى نتيجة، هي أن هذه المحاولات، ليس من شأنها أن تجعل الصراع النقدي ينتهي بإبداع جديد فكري وأدبي، وإنما تهدف أساسا إلى تشويه النقد قبل تشويه التيار المناقض، باعتبار أن وجود تيارات متعارضة داخل الثقافة الوطنية، تنبئ بتفاعلها وإعفاء الحركة الأدبية، إذا ما سارت في إطارها الحقيقي والبناء. وما استفاده الأدب العربي من صراعات؛ وما نقائض جرير والفرزدق إلا دليل على ذلك.

إذن من خلال ما تقدم يبدو أن الصراع النقدي وباقي الصراعات الثقافية، لم يقتصر على الجانب الأدبي، وإنما عبر عن مواقف ودوافع وقيم نقدية وانتماءات سياسية وأيديولوجية. لذلك كان من« الطبيعي جدا أن ينحو الصراع النقدي عندنا هذا المنحى، لأن الممارسة الثقافية أضحت تتحرك أكثر من أي وقت مضى فوق سطح اجتماعي تاريخي ساخن، يمور بالتناقض والإشكال».[11]

فهذه الأسباب وغيرها أثرت إلى حد بعيد في الممارسات النقدية، لذلك تعددت اتجاهاتها بتعدد قناعات وانتماءات الكتاب والمبدعين. ومن ثم كان لزاما عليها أن تلج باب الميدان الأدبي والسياسي في آن. خصوصا أنها تواكب انتاجات أدبية، تنصب على الواقع المعيش بالدرجة الأولى، لتظهره على وجهه الحقيقي، وتعكس آليات تناقضاته، لذلك فالصراع العميق الذي اجتازه النقد الأدبي في السبعينات لا يمكن اعتباره بأي حال صراعا أو خلافا ثقافيا وكفى، وإنما هو في الحقيقة «خلاف ثقافي ملتحم باللحظة التاريخية وليس خلافا ثقافيا خارج التاريخ».[12] فكان خضوعه أو استجابته للتيارات السياسية أن فجر صراعا عنيفا. والذي يهمنا من هذا كله هو الصراع النقدي الأدبي. فهل اتساع دائرة الصراع بهذه الصورة كان من شأنه أن يساهم في تطوير الحركة النقدية، وخدمة النصوص الأدبية بصدق وأمانة، أم أنه ظل صرخة في واد، أم أن مخفضاته، فترت نسبيا بإفراز حصيلة من الأحكام الارتجالية والذاتية، أدت إلى تعويق مسيرته، وحالت دون تمثله لمناهج رصينة وجادة لها مقاييسها وقواعدها؟. إنما يستشفه المطلع على المقالات المتصارعة، وغلبة الطابع الذاتي والأحكام الارتجالية.

فمحمد زفزاف يقول: «إن حركة النقد عندنا ما تزال تنمو، وعليها وحدها يجب أن تكون الحراسة مشددة، إني ألاحظ أن كل ما يكتب مثلا من عمل مغربي حتى ولو كان ضعيفا، ينشر إثارة جدل، ولكنه في نهاية الأمر لا يثير سوى مهاترة، إن نشر تلك المحاولات النقدية الضعيفة لا تخدم الأدب المغربي، بقدر ما تقف عرقلة في وجه تطوره، لذلك وجب التشديد في نشر تلك المحاولات».[13]

فظاهر كلام الناقد، أن الجدال النقدي الذي عرفته الساحة الأدبية عندنا نتائجه عكسية، لأن أي جدال في رأيه يعتبر مهاترة لا غير. وأكثر من هذا، فصاحب النص اتهم النقاد الشباب بضعف التكوين، واقتناعهم بقراءة كتب محددة علاوة على استعمالهم مفاهيم ومصطلحات لم يتمكنوا من هضمها بعد.

ومن المحتمل أن تكون خطورة هذا الموقف الذي آل إليه النقد الأدبي في نظره، هي التي دفعته إلى المطالبة بتشديد الرقابة على ما ينشر من آراء نقدية، غير أن اتهام النقاد الشباب بالعفوية، والانطلاق من المصطلحات العامة والفضفاضة أقلقت نقادا آخرين، فراحوا يحتجون على صاحب النص، ويطالبونه بالإتيان بنصوص تبين فوضوية الرأي وسطحيته وتميز الصواب من الخطأ. فهذا مصطفى صويلح ينكر على زفزاف ما ذهب إلى قوله، ويعتبر أحكامه ذاتية لا تستند إلى دليل، فيقول: «فقط هو ــ زفزاف لاحظ أن كتابات نقادنا الشباب غامضة وتنطلق من مفاهيم دخيلة».[14]

أما نجيب العوفي، فهو بدوره يأسف على صدور حكم من هذا القبيل، عن أحد أقطاب الثقافة المغربية، يدعي لنفسه الريادة الثقافية، ينشد بالتحديد خصوصا في ظروف خاصة تعيشها وضعيتنا الثقافية، و لم يفصح عنها، يقول: «هي نتيجة قاسية ومؤسفة، لا أدري كيف طاوعت الأخ زفزاف نفسه على الجهر في وضعية ثقافية ملغومة ومحاصرة نعيشها».[15]

أما عن مسألة تجاوز نقد النص إلى النفس، والتطاول على شخصية ــالغيرــ فهي ظاهرة نلمسها في النصوص المنشورة بالملاحق الثقافية، ومرد ذلك إلى غلبة الطابع الذاتي، وإدخال النّزاعات السياسية في الصراعات النقدية الأدبية. فكانت النتيجة أن تلبس السجال النقدي بلباس سياسي. ومن ذلك يمكن الإشارة إلى نص نجيب العوفي الذي عبر بوضوح عن خروج النقد إلى صاحب النص بدل تناول رأيه بالتحليل والنقد، يقول: «يمكن أن نفهم سر هذا - الدلع - الذي يحظى به الطريبق من طرف صحيفة العلم. وسر هذه الصولات والجولات التي يثير غبارها فوق صفحاتها، وطبيعة الدور الذي يضطلع به تحت قبة التعادلية ...إنه نموذج صالح لتلميع حذاء الحزب ورتق فتوقه، والقيام بدور الخديم المخلص للأعتاب الاستقلالية».[16]

والمهم من هذا كله، هو القول بامتزاج الأحكام النقدية الأدبية بالقناعات السياسية، وهذا ليس بعيب، بحجة أن النقد فرد من المجتمع، يعيش واقعه بصراعاته وتناقضاته، وبحكم انتمائه للنخبة المثقفة/ يكون لزاما عليه أن يلج بابه متسلحا بسلاح الصدق والأمانة لاثبات صحة ما يطرحه من آراء نقدية.ذلك أن النقد كما يقول البشير الوادنوني، نقلا عن سارتر:ــ «لكي يكون صحيحا بمعنى أن يكون له مبرر وجود، عليه

أن يكون متحيزا متحمسا وسياسيا، أي عليه أن ينطلق من وجهة نظر شخصية، ولكنها وجهة نظر تفتح أكثر ما يمكن من آفاق».[17]

وليس معنى هذا كله، أن الصراع أعطى نتائج عكسية عرقلت مسيرتنا الأدبية، فهو رغم ما سقط فيه من المزالق، يعتبر أولا وأخيرا تحركا إيجابيا شهدته ثقافتنا الوطنية يدل فيما يدل على تصاعد الوعي الجماهيري، وطموح الحركة الأدبية للبحث عن هويتها الحقيقية، ثم فرض نفسها على السطح الاجتماعي الساخن، باعتبارها الابن الشرعي للواقع المغربي، لكن هذا الطموح اصطدم في نظر البعض بأزمة نتيجة الانبهار والازدراء الذاتيين، إلى درجة «اعتبار الآخرين، الجسم والصوت، واعتبارنا نحن الذنب والصدى»،[18] واعتبرت في نظر البعض الآخر أزمة مفتعلة، تعالت صرخاتها في أجواء المجلات والجرائد الوطنية لتصفية الحساب مع الرافد الجديد الذي أصبح يهدد وجودهم.

أزمة النقد الأدبي في المغرب، المرحلة السبعينية نموذجا

إن المشروع النقدي الجديد الذي أخذ يشق طريقه الشاقة عصاميا ليؤسس شخصيته المتميزة، ويتفاعل مع التحول الطارئ على البنيات الاجتماعية في العقل السبعيني، جاء تجاوزا للمناهج السائدة. فكان لزاما عليه أن يواجه صعوبات وعراقيل موضوعية وذاتية، ويتلقى طعنات تناوشه ويتحداها، ويدخل حلبة الصراع الاجتماعي والثقافي، الذي كان سببا في بعث ما اصطلح عليه_ «أزمة» أو جاءت نتيجة لتلك الصراعات، فتداولت حديثها المجلات والصحف بشكل مفرط لأسباب متشابكة، وعللها المهتمون بتعليلات شتى، فاختلفت مواقفهم منها باختلاف انتماءاتهم وقناعتهم، حتى خيل أنها ورطة انتكست فيها الحركة الطلائعية يستحيل الخروج منها. فما هي أسبابها وحقيقتها، وما موقف النقاد منها؟.

إن إشكالية الأزمة النقدية التي نالت اهتماما بالغا من لدن النقاد، وشغلت صفحات الجرائد (المحرر ــ العلم) فترة طويلة، لها ما يبررها في واقعنا السوسيو ثقافي. ذلك أن جدة التجربة التي جعلت هدفها الالتحام بالواقع وما يزخر به من صراعات وتناقضات، كان لها دورها الفعال في إذكاء الأزمة وتوسيع رقعة الحديث عنها. فكان بدهيا أن تندلع ضجتها في الأوساط الثقافية وتحملها أكثر ما تطيق، خصوصا وأنها وجدت فرصتها المواتية للطعن والقدح، فبالغت في وصفها، وأكثرت في تعليلاتها إلى أن أخرجتها من مدلولها الحقيقي، وبذلك «أسيء استعمالها بدوافع ولأغراض ذاتية بحتة، وحرفت عن دلالاتها الحقة، ولم تضبط وتحدد على نحو يقطع دابر الالتباس والفوضى».[19]

فبدل أن تتناول المشكل في عمقه، وفي علاقاته بالانتاجات التي أصبحت في حاجة للاستهلاك وتبحث عن الحل الصحيح، عمدت إلى التساؤلات المتخاذلة، ورفض كل ما هو معارض لاتجاهها، وبهذا الشكل غدت الأزمة أزمة صراع بين تيارين سياسيين، أشاعها حديثها لأسباب أو أخرى، كل منها يحمل مسئوليتها للآخر، وسيتضح هذا بعد عرض آراء بعض النقاد في الموضوع.

فنجيب العوفي عللها تعليلا طبقيا، ورأى أنها «أزمة ذاتية وأحادية، أزمة الذات مع نفسها نتيجة لأزمتها مع الواقع الذي يتخطاها ويتجاوزها».[20]

وحمل مسئوليتها لمن سماهم «أنصار المنهج الوصفي» وخص بالذكر حسن الطريبق وعبد العلي الودغيري وغيرهما ممن عملوا على اختلاقها.

وفي كلام العوفي دليل قاطع على أن الأزمة صراع نقدي، اختلقت كرد فعل ضد التيار الجديد الذي أصبح يحدد وجودها، ويشهر بتنديدها وعدم صلاحيتها، على اعتبار أن المنهج الوصفي يحصر هدفه في فصل المبدع عن واقعه وإبعاده عن مشاكل مجتمعه، لكي لا يكشف التناقضات ويعري جذورها. ومن هنا اعتبرها العوفي أزمة ذاتية يتخبط فيها الطريبق والودغيري ومن نهج نهجهما. ونفس التعليل يقدمه طاهر كنوني الذي رفع يده معارضا فكرة وجود أزمة يعيشها النقد المغربي، وإنما هي بلبلة أشاعها أشخاص معينون، لما لم يجدوا من يستجيب لمطالبهم، فروجوا لها بغية كسب نقاد «يمسحون لهم ظهور كتاباتهم وأشعارهم كما يمسح لهم أبناء الطبقة الكادحة ظهور سياراتهم وأحذيتهم، فكل كاتب منهم يحب أن يجد إلى جانبه عددا من النقاد يستغلهم في حياته الفنية، كما يستغل الطبقة الكادحة في حياته الخاصة».[21]

أما إدريس الناقوري فلم يتفق على مصطلح «أزمة» وإنما يراها صراعا اجتماعيا يعكس تطورا في الوعي الجماهيري، فيقول: «اعتقد شخصيا أن الصراع حول النقد في الأدب المغربي -أو ما اصطلح البعض على تسميته بأزمة النقد- لا يمت بصلة إلى الأزمة، وإنما تعبر عن وعي تطور حقيقي في الفكر المغربي وفي الأدب المغربي».[22]

وهكذا فالآراء السابقة تجمع كلها على إشاعة الحديث عن الأزمة النقدية ليست من ذلك في شيء، وإنما هي أولا وأخيرا أزمة صراع سياسي وطبقي، لا يمكن حلها بإعادة النظر في المناهج المتبناة أو بدراسة معمقة للمشاكل الكبرى، لأن ذلك لا يزيد المشكلة إلا تأزما واستفحالا؛ فالأزمة أزمة مجتمع، وعلاجها مرهون بعلاج المشاكل السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

ومن الذين أدلوا برأيهم في الموضوع، وتناولوا دراسة المشكل من جانب آخر، هناك إبراهيم الخطيب الذي حلل الأزمة تحليلا بعيدا عن أي تأثير سياسي أو ذاتي، حيث

أعاد النظر في هؤلاء وأولئك، قبل أن يبحث في أسبابها وحقيقتها. فتبين له أن علتها ترجع إلى مصدرين أساسيين: التكوين الأكاديمي المضطرب الذي يتلقاه النقاد في الجامعات. وهيمنة التراث عليهم، فضلا عن أزمة الطبع التي اضطرتهم إلى نشر كتاباتهم في جرائد وطنية عملت على إذكاء الأزمة وتعميقها، فكانت حصيلة ما استفاده النقد من دراسة هؤلاء ـــ نتيجة تأثرهم بالتراث، واعتبار النقد المشرقي نموذجا مثاليا ـــ أن استبدلت المفاهيم السوسيولوجية بمفاهيم سياسية محددة، وتوظيف مصطلحات جديدة في النقد، كالصراع الطبقي والبرجوازية الصغيرة... وبذلك ظهرت ثنائيتان في حقلنا النقدي «بحث نقدي، ومقالة نقدية»، وأخلص إلى القول: «هذه الوضعية بكل هذه العناصر هي ما يمكن أن نسميه (بصفة شخصية) مأزقا، لماذا؟ لأن النقد الأدبي عندنا لم يحدد موضوعه بعد».[23]

وليس بعيدا أن تكون الأزمة ناتجا عما أشار إليه إبراهيم الخطيب، خصوصا إذا تذكرنا أن المناهج النقدية الأدبية الحديثة عندنا لا تزال لم تطرح بعد للدراسة بشكل واضح على المستوى الجامعي، إلا فيما يقوم به بعض الأساتذة ذوي الاطلاع الواسع على التيارات النقدية الحديثة. هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإن البضاعة المتناولة تراثية بالدرجة الأولى، لا تمت بصلة لواقعنا المعيش. ولعلها الحقيقة التي حدت بالنقاد الشباب إلى إعادة النظر في وضعنا النقدي والثقافي عامة ومحاولة تأصيله، وإعطائه نفسا جديدا من شأنه أن يجعله أقدر على مواكبة النصوص الأدبية وتوجيهها الوجهة المعبرة عن الحياة اليومية في حركاتها وسكناتها، ورفضت كل إنتاج لا يرتبط بالواقع المعيش، وبذلك أحدثت القطيعة مع المناهج التي تهتم أكثر بالجانب الفني. فكان طبيعيا أن يدافع كل اتجاه عن نفسه بكل ما يملكه من معدات ووسائل تعكس بشكل ظاهر موقفه ومنظوره الذاتي للثقافة والمجتمع، وينادي بتأزم التيار المعارض. ومن ثم أصبحت الأزمة، علاوة على كونها أزمة صراع سياسي وثقافي، أزمة صراع بين القديم والجديد، فكثر ترديد عبارات بعينها في الطروحات التي تمدنا بها الملاحق الثقافية والمجلات الوطنية (العجز عن رصد البنيات العميقة للنص الأدبي ـــ عدم القدرة على استيعاب شروط المرحلة- ترديد مفاهيم نقدية مستهلكة...).

فأزمة النقد بهذا التعبير كما يقول سعيد يقطين: «أزمة حداثة والنقد أزمة عجز عن استكناه التجارب الإبداعية التي تنمو وتتطور بسرعة، بالاكتفاء بالتجارب المحنطة النقدية... وفي ضوء هذه الرؤية يمكن أن نعترف بوجود عمل نقدي متخلف نظريا عن ممارسة عملياته التحليلية».[24]

فهذه الدوافع والأغراض التي ذكرها، عملت إلى حد بعيد على ذيوع أزمة النقد، وتشويه مفهومها الحقيقي لأسباب مختلفة، فذهب ضحيتها العديد من النقاد الشباب الذين

لازالوا يطرقون باب الميدان النقدي، لما تلقوه من طعنات، فكانت النتيجة أن انصرفوا عن ساحة الكتابة يائسين، لما لم يطيقوا صبرا إزاء الهجمات التي تشنها عليهم هذه الجريدة أو تلك. إنها حملات كبلت طموحهم، وحالت دون تحقيق ما كانوا يصبون إليه، «فهجروا الميدان نهائيا، لقد كانوا ينتظرون الورود، فإذا بأنوفهم تمرغ في الشوك، والذين فعلوا ذلك فعلوه إما عن علم أو جهل، وكلاهما محتملان».(25)

فبدل أن تشجع هذه الأقلام الشابة على مواصلة عملها الفني والطموح، وتنقد انتقادا بناء ينير أمامها سبيل الثقافة الوطنية عفر وجهها ذوو القربى الذين كانت تنتظر مساعدتهم، وترى فيهم النموذج المقتدى، والمؤنس الأمين في شق طريقها الذي لازال وعرا، فعادت إلى مخبئها من جديد، وهي تردد قول الشاعر:

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة على المرء من وقع الحسام المهند.

والواقع أن هذا الموقف الذي آلت إليه مناقشة إشكالية الأزمة النقدية موقف مؤسف، يهدف إلى تعميقها أكثر مما يتوخى علاجها وطرح البديل.

لقد كان على الذين قادوا السفينة أن يستبعدوا في الطرح كل تحزب وتعصب، ويندوا بكل ما هو جامد متحجر، وأن يناقشوا كل إنتاج إبداعي كيفما كان نوعه رجعيا أم تقدميا ثوريا. وبالاحتكام إلى المناهج العلمية الرصينة يتبين الغث من السمين، والضال من الهادف والموجه...ويتحدثوا عن أنواع النقد داخل الحركة الأدبية عوض الاقتصار على التنويه والترويج لجانب واحد، وإهمال الآخر أو تهجينه.

فصحيح أن النقد الأدبي عندنا لا زال يكتنفه الغموض والاضطراب بحكم افتقاره لمناهج مستمدة من صميم الواقع المغربي، واعتماده على مناهج أجنبية، لكن هذا ليس بعيب، فالمسألة تبقى مسألة حسن اختيار ما هو أصلح للتطبيق على الواقع الذي يستضيفه، باعتبار أن الثقافة لا وطن لها. وبالتالي فهي مرحلة وقتية قطعتها حتى الثقافات التي نتشرب نحن اليوم من منابعها. أما أن نذهب مذهب النقض وحب الذات وتهجين كل ما هو مخالف لقناعاتنا وانتماءاتنا، ونحمل مسؤولية الأزمة لهذا الجانب أو ذاك، فإن هذا المنحى يدل بالتأكيد على المبالغة والاندفاع والشطط. أزمة النقد في الحقيقة والواقع، أزمة بنيات اجتماعية ككل، وحلها «مشروط بحل المسألة الثقافية في المغرب، ولكن حل المسألة الثقافية مشروط أيضا بحل المسألة السياسية والاقتصادية والاجتماعية».(26)

الهوامش

1 - **محاضرات جامعية**، سنة 1982-1983 (بتصرف).

2 - نجيب العوفي: «**الوضع النقدي العربي يعكس قلقا في الوعي العربي**»، المحرر الثقافي،عدد 1980/12/7.

3 - إدريس الناقوري، «**دفاعا عن المنهج الاجتماعي**»، الثقافة الجديدة، عدد 6، 1978، ص:14.

4 -.نجيب العوفي: «**الوضع النقدي العربي يعكس قلقا في الوعي العربي**»، المحرر الثقافي، عدد 1980/12/7.

5 - حسن المنيعي: «**أزمة المنهج النقدي العربي (النقد العربي كنموذج)**»، الثقافة الجديدة، عدد10 /1978/11، ص:67.

6 - البشير الوادنوني: «**من اجل نقد منهجي متطور**»، المحرر الثقافي، 1976/12/26.

7- البشير الوادنوني: «**الاستلاب الأيديولوجي في الرواية المغربية**»، المحرر الثقافي، عدد 1975/4/13.

8- إدريس الناقوري: «**المصطلح المشترك**»، ط:3 ، دار النشر المغربية،ص:15 .

9- عبد الكريم غلاب: «**واقعية المضمون النضالي**»، العلم الثقافي، عدد 1983/3/5.

10 - إدريس الناقوري، «**دفاعا عن المنهج الاجتماعي**»، الثقافة الجديدة، عدد6/1978، ص:15.

11 - نجيب العوفي: «**درجة الوعي في الكتابة**»، مطبعة دار النشر المغربية، ص:17.

12 - نفس المصدر والصفحة.

13 - محمد زفزاف: «**من أجل نقد أدبي صحيح**»، المحرر الثقافي، عدد 1975/3/9.

14- مصطفي صويلح: «**حول مقالة محمد زفزاف**»، المحرر الثقافي، عدد1975/1/24.

15- نجيب العوفي: «**تجربتنا النقدية بين المصادرة والتشجيع**»، المحرر الثقافي، عدد 1975/4/1.

16- ....: «**حاشية عن المسألة النقدية**»، المحرر الثقافي، عدد 1979/12/28.

17 - البشير الوادنوني: «من أجل نقد منهجي متطور»، المحرر الثقافي 1976/12/26

18 - بنسالم حميش: «**ملاحظات حول مزق النص النقدي**»، المحرر الثقافي، عدد 1980/7/6.

19 - نجيب العوفي: «**المنهج الجدلي**»، الثقافة الجديدة، عدد 9، 1976/12/26.

20 - نجيب العوفي: «**درجة الوعي في الكتابة**»، مطبعة دار النشر المغربية، ص:419.

21- طاهر كنوني: «**وجهة نظر حول أزمة النقد المفتعلة**»، المحرر الثقافي، عدد1977/7/10.

22- إدريس الناقوري، «**دفاعا عن المنهج الجدلي**»، الثقافة الجديدة، عدد 9، 1978، ص:12.

23 - إبراهيم الخطيب: «**حول أزمة المنهج في النقد الأدبي المغربي**»، المحرر الثقافي، ع.1978/12/24.

24- سعيد يقطين: «**في المسألة النقدية**»، المحرر الثقافي، ع.1977/6/19.

25 - محمد زفزاف: «**من أجل نقد أدبي صحيح**»، المحرر الثقافي،عدد 1975/3/9.

26 - آفاق مغربية. ع.**1969/4.ص:81.** «**ندوة الشعر**».